الأدب المقارن: مدارسه ومجالات البحث فيه

هادی نظری منظم*

ریحانة منصوری**

الملخص

الأدب المقارن عند رواده الفرنسيين وأساتذته، فرع من التاريخ الأدبی، يعنی بدراسة الأدب القومی فی علاقاته التاريخية بغيره من الآداب.هذا المفهوم الأساسی المتمثل فی دراسة التأثيرات قدغلب علی الدراسات الأدبية المقارنة، منذ نشأة الأدب المقارن فی أواخر القرن التاسع عشر وحتی منتصف القرن العشرين الذی نشأ فيه بالتدريج الاتجاه الأمريكی، الذی لايشترط وجود علاقات تاريخية فی الأدب المقارن، ولكنه يعنی بدراسة التشابهات والتخالفات بين الآداب، كما يعنی بمقارنة الأدب بالفنون (الرسم، الموسيقی، السينما، و...) والإنسانيات (الفلسفة، التاريخ، السياسة، و...) والعلوم البحتة.

وفی هذا المقال محاولة متواضعة لإيضاح المدرستين الفرنسية والأمريكية، وما لهما من مزايا وما أخذ عليهما من مآخذ، كما فيه حديث عن أهم وأحدث مجالات البحث فی الأدب المقارن المعاصر، وأكثرها غير معروفة بالنسبة للقارئ والدارس غير المتخصصين.

الكلمات الدليلية: الأدب المقارن، المدرسة الفرنسية، المدرسة الأمريكية، مجالات البحث المقارنی.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة بوعلی سينا، همدان ـ أستاذ مساعد.

**. خريجة جامعة آزاد الإسلامية فرع طهران الشمالية.

Nazarimonazam@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٨٩/٥/٧هـ. ش تاريخ القبول: ١٣٨٩/١٠/١٤هـ. ش

المقدمة

يعد «الأدب المقارن» ترجمة حرفية للمصطلح الفرنسى compare rature'litte La والمصطلح الانكليزى Literature comparative وهو بإجماع المقارنين: «تسمية ناقصة فى مدلولها، ولكن إيجازها سهل تناولها، فغلبت على كل تسمية أخرى.» (هلال، ١٩٦١م: ١٦)

والمعروف أن فرنسا هى منشأ الأدب المقارن، وأن الفرنسى فيلمان[١] كان أسبق من غيره إلى استخدام المصطلح، وذلک من خلال المحاضرات التى ألقاها عام ١٨٢٨م حول علاقات الأدب الفرنسى مع بعض الآداب الأوربية. (برونيل وبيشوا وروسو، ١٩٩٦م: ١٨)

وكان وراء الدعوة إلى الأدب المقارن فى فرنسا، أدباء وباحثون كبار ممن يؤمنون بالانفتاح والأممية، وينكرون كل نزعة إلى الانغلاق والانعزالية؛ ومن هؤلاء على سبيل المثال- لا الحصر- أمبير[٢]، وسنت بوف[٣] وجوزيف تكست[٤]، ويمكن اعتبار هذا الأخير أباً للأدب المقارن التطبيقى فى مفهومه العلمى.

وإذا كانت نهاية القرن التاسع عشر قد شهدت تطور الأبحاث التطبيقية فى الأدب المقارن، وبدء الاعتراف به فى بعض الجامعات الفرنسية والأمريكية، فإن الثلث الأول من القرن العشرين شهد تأسيس الوعى النظرى لمنهج الأدب المقارن. ومن أبرز الفرنسيين، الذين أسهموا فى تحديد الأدب المقارن على نحو علمى فى النصف الأول من القرن الماضى، بالد نسبرجر[٥]، وفان تييجم[٦]، وبول هازار[٧]، وجان مارى[٨] كاريه، وماريوس فرانسوا جويار[٩]، و... ممن أنشأوا أول وأشهر مدرسة مقارنة فى العالم، هى المدرسة الفرنسية التقليدية (التاريخية).

1. A. Villemain
2. J. J. Ampére
3. S. Beuve
4. J. Text
5. F.Baldensperger
6. P. V. Tieghem
7. P. Hazard
8. J. M. Carré
9. M. F. Guyard

وبالمناسبة لاتفوتنا الإشارة إلى أن المفهوم الفرنسى للأدب المقارن ـ وستجرى الإشاره إليه بعد قليل ـ يلتقى ـ جزئياً على الأقل ـ مع أكثر الاتجاهات السائدة فى البلدان الأوربية، مما أتاح لهذا المفهوم أن يفرض نفسه فى أغلب البلاد الأوربية، منذ أخريات القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين على أقل تقدير.

مفاهيم الأدب المقارن وتعاريفه

أثار تعريف الأدب المقارن الكثير من النقاش والخلاف، كما حدث بالنسبة لتسميته. وإذا صح أن استمرار الخلاف حول المصطلح أمر دون جدوى، إلا أن الخلاف حول المفهوم ظلّ ومازال كفيلاً بإغناء المدلول المقارنى. وفيما يلى أبرز مفاهيم الأدب المقارن حسب تسلسها التاريخى:

المفهوم الأول. الأدب الشفوى المقارن: والمقصود بهذا المفهوم هو «دراسة الأدب الشفوى وبخاصة موضوعات القصص الشعبى وهجرته، وكيف ومتى دخل حقل الأدب الفنى.» (ولک ووارن، ١٣٧٣ش: ٤١)

وليس من شک فى أهمية الأدب الشفوى باعتباره جزءاً لايتجزأ من البحث الأدبى، ومصدراً أولياً للكثير من الموضوعات والأجناس الأدبية؛ لكن الذى تجدر الإشارة إليه هو أن هذا المفهوم ظل حبيساً فى أوربة ولاسيما الشمالية، وهو اليوم رافد جزئى من روافد المفهوم المقارنى. (الخطيب، ١٩٩٩م: ٢٦)

المفهوم الثانى. دراسة التأثير والتأثر: المفهوم الثانى للأدب المقارن يتمثل فى «دراسة الصلات الأدبية بين أدبين قوميين أو أكثر.» (ولک ووارن، ١٣٧٣ش: ٤٢)

وإلى الفرنسى بالدنسبرجر يرجع الفضل فى تأسيس هذا المفهوم الأساسى للأدب المقارن، ثم زاده إيضاحاً وانتشاراً بول فان تييجم «أول من قدم لنا دراسة شاملة عن الأدب المقارن بطريقة منهجية ومنظمة.» (مكى، ١٩٨٧م: ٧٥)

يقول فان تييجم فى كتابه **الأدب المقارن:** «...يخشى أن يظن أن المقصود بالمقارنة هو تنضيد المتشابه من الكتب والنماذج والصفحات من مختلف الآداب، لمعرفة وجوه

الشبه ووجوه الخلاف، لا لغاية أخرى غير إرواء حب الاطلاع، وتحقيق رغبة فنية أو إصدار حكم تفضيلي ينتهي إلى تصنيف. ولا نكران أن هذا الضرب من المقارنة عمل شيق جداً ومفيد جداً... ولكن ليس له قيمة تاريخية، ولايتقدم بتاريخ الأدب خطوة واحدة إلى أمام... ينبغي أن نفرغ كلمة مقارنة من كل دلالة فنية ونصبّ فيها معنى علمياً.» (علوش، ١٩٨٧م: ٦٩ و٧٠)

ويحدده جان مارى كاريه بقوله: «إن الأدب المقارن فرع من التاريخ الأدبى، لأنه دراسة العلائق الروحية الدولية، والصلات الواقعية التى توجد بين بيرون[1] وبوشكين[2] وجوته[3] وكارليل[4] و... أى بين المنتجات والإلهامات، بل بين حيوات الكتاب المنتمين إلى آداب عدة. وهو لاينظر من وجهة جوهرية إلى المنتجات من حيث قيمها الأصلية، ولكنه يعنى على الأخص بالتحولات التى تخضع لها كل دولة أو كل مؤلف مستعاراته. ففى الواقع إن كلمة التأثير معناها غالباً التأويل، فرد الفعل، فالمقاومة، فالمعركة.» (جويار، ١٩٥٦م: ل)

وأوضح تعريف فى هذا المجال هو ما قدّمه جويار تلميذ مارى كاريه بقوله: «الأدب المقارن هو تاريخ العلائق الأدبية الدولية.فالباحث المقارن يقف عند الحدود اللغوية والقومية ويراقب مبادلات الموضوعات، والفكر، والكتب، والعواطف بين أدبين أو عدة آداب.» (المصدر نفسه: ٥)

ويتضح الآن مما سبق أن الأدب المقارن وفق مفهومه الفرنسى التقليدى (مفهوم التأثيرات):

١. فرع من تاريخ الأدب ومكمل له. ثم استقل‌عنه فيما بعد، كما استقل عن النقد الأدبى ونظرية الأدب، ولكن هذه الاستقلالية نسبية نظراً لتلاحم الأدب المقارن مع هذه الحقول الثلاثة.

٢. الأدب المقارن خضع خضوعاً كبيراً لتاريخية القرن التاسع عشر وفلسفته الوضعية.

1. Byron
2. Pouchkine
3. Goethe
4. Carlyle

وبعبارة أخرى: «شكّل التواءم بين النزعتين التاريخية والوضعية أساساً نظرياً لما يعرف بالمدرسة الفرنسية فى الأدب المقارن.» (عبود، ١٩٩٩م:٢٧٠)

٣. ليس الأدب المقارن هو الموازنة أو المقارنة بين الآداب، ولكن المقارنة تعد نقطة بدء ضرورية تمكن الباحث من اكتشاف التشابهات والتماثلات أو الفوارق والخلافات بين الأعمال الأدبية.

٤. الأدب المقارن فىمفهومه التقليدى يشدد على اختلاف اللغة كشرط ضرورى لقيام الدراسات المقارنة.وقد أثار هذا الشرط اعتراضات عديدة فيما بعد، منها أن هذا الشرط إنما وضع «من أجل خدمة التبعية، وليس من أجل خدمة دراسة الفوارق بين الشعوب.» (المناصرة، ١٩٨٤م: ١١٨)

٥. الأدب المقارن يركز على الأدب واللغة القوميين، ويتخذ من الأدب القومى محوراً تدور حوله الدراسات المقارنة.

٦. الأدب المقارن يعنى برصد الصلات الواقعية والعلاقات التاريخية بين الآداب، أى إن قوامه التاريخ الأدبى.

٧. الأدب المقارن يكشف عن مدى أصالة الأديب أو عدم أصالته، ويدرس نتيجة التأثير فى بناء العمل الأدبى. وهنا تتحول دراسات التأثير إلى شكل من أشكال النقد الأدبى.

٨. التأثر لايعنى بالضرورة التحرك فى اتجاه المؤثر، إذ يمكن أن تكون العلاقة بين المؤثر والمتأثر علاقة معارضة.

٩. إن دراسات التأثيرات إجراؤها صعب، ومن هنا يعطى كاريه وتلميذه جويار الاهتمام الأكبر لدراسات الاستقبال والتلقى الإبداعى.

١٠. مجالات البحث فى الأدب المقارن عديدة، أهمها: الأبحاث اللغوية، ودراسة الأجناس الأدبية، والموضوعات والأساطير، وتأثير أديب فى أدب آخر، والمصادر، والتيارات الفكرية والمذاهب الأدبية، وعلم الصورة[1]. والحقيقة أن هذا الفرع الأخير من

1. Imagology

أحدث ميادين البحث فی الأدب المقارن، وهو يدين فی نشأته لأدب الرحلات باعتباره المعين الذی يستقی منه أی شعب معلوماته عن شعب آخر.

مآخذ علی المفهوم الثانی (دراسة التأثيرات)

فی القرن العشرين ولاسيما فی النصف الثانی منه واجه المفهوم الفرنسی للأدب المقارن اعتراضات كثيرة من خارج فرنسا وداخلها، أهمها ما يلی:

أ. منهج الأدب المقارن منهج علمی وتاريخی عفا عليه الزمن، ولايختلف عن منهج الموازنات التی تقام فی داخل الأدب القومی الواحد. بعبارة أخری «ليس لهذا المنهج مميزات تفرده عن غيره من مناهج البحث الأدبی.» (الخطيب، ۱۹۹۹م: ۳۴)

ب. الأدب المقارن وفق مفهومه التاريخی «لايتناول العمل الأدبی بالنقد والتحليل، وإنما يحصر نفسه فی مشكلات خارجية تتصل بالتأثيرات والمصادر والشهرة والذيوع.» (ولک ووارن، ۱۳۷۳ش: ۴۳)

ج. الأدب المقارن فی مفهومه الفرنسی التقليدی «يهتم بكتاب الدرجات الدنيا.» (مكی، ۱۹۸۷م: ۲۴۹) ولايعطی مثل هذه العناية للكتاب الكبار.

د. إن المقارنين الفرنسيين الأوائل كانوا ذوی نزعات استعمارية، وكانوا يهدفون إلی إثبات تأثيراتهم فی الآداب غير الأوربية، وقدركّز بعضهم علی الآداب الأوربية، وأهمل آداب القارات الأخری. (الخطيب، ۱۹۹۹م: ۴۲)

و. ثمة مشاكل تنجم عن التزام المدرسة الفرنسية بالمعيار اللغوی فی تحديد حدود الأدب القومی، منها:

۱. مسألة الآداب التی تكتب بلغة واحدة، كالأدبين الانكليزی والأمريكی؛ فهل نعتبرهما أدباً واحداً مكتوباً بالإنكليزية – كما يری المقارنون الفرنسيون – أم هناک أدبان مختلفان يجب أن نقارن بينهما؟

۲. مسألة الكتاب الذين يبدعون أدباً بغير لغتهم الأم. فهل يعتبر هذا الأدب المنتج أجنبياً أم هو ينتمی إلی آدابهم الوطنية؟

٣. مسألة البلدان التى يتحدث شعبها بأكثر من لغة قومية كسويسرا التى تعترف بثلاث لغات رسمية، هى الألمانية والفرنسية والايطالية. (شوقى رضوان، ١٩٩٠م: ٢٤)

مناقشة المآخذ المطروحة

برزت فى وجه تلك المآخذ ردود معقولة، مما أسهمت فى تعميق المفهوم الفرنسى للأدب المقارن. وفيما يلى عرض موجز لتلك الإجابات:

أ. منهج الأدب المقارن «فرع من منهج البحث الأدبى... ولكنه يقترب كثيراً من منهج البحث التاريخى، ويراعى الدقة العلمية المتناهية، ويعنى بالنتائج الملموسة، ويبتعد عن الأحكام العامة. (الخطيب، ١٩٩٩م: ٣٥) يضاف إلى ذلك أن أحداً لم يمنع الدارسين لحد الآن من الاستعانة بالمنهج النقدى، لأن البحث الأدبى أعقد من أن يخضع لمنهج واحد.

ب. مهمة الأدب المقارن فى مفهومه التاريخى هى الكشف عن التأثيرات الخارجية التى تسهم فى تكوين العمل الأدبى؛ الأمر الذى لايتم من خلال التحليل الداخلى للإنتاج.والمدرسة الفرنسية التقليدية لاتتجاهل أهمية النقد والتحليل الجمالى فى دراسة العمل الأدبى، إلا أنها «ترى أن فهم المصادر الخارجية لذلك الإنتاج يساعدنا على تقديم تحليل جمالى أكثر عمقاً.» (عامر، ١٩٨٩م: ٤١)

ومع التسليم بأن المدرسة الفرنسية التقليدية تنتمى إلى تاريخ الأدب أكثر مما تنتمى إلى الأدب والنقد، إلا أننا نؤكد ثانية أن الأدب المقارن يجب أن يهتم بدراسة النواحى الجمالية والذوقية، إذا ما اقتضى المقام البحث فى هذه الأمور.

ج. إن الاهتمام بكاتب من الدرجة الثانية أو الثالثة ليس دون جدوى. بل إننا نرى أن مثل هذا الاهتمام «قديكون بالغ الأهمية، إذ قد يمثل حلقة ضرورية ووثيقة معبرة لتصوير عقلية العصر أو فضوله أو ذوقه.» (مكى، ١٩٨٧م: ٢٤٩)

وفى معرض الرد على هذا الاعتراض يحسن بنا أن ننبّه إلى أن ظاهرة التبادلات والتأثيرات ظاهرة إنسانية عامة، فلايمكن أن نستثنى أى أديب- كبيراً كان أم صغيراً- من الوقوع تحت تأثير الآخرين.

د. الإنصاف يقتضى أن نقول إن المقارنين الأوائل كانوا يجهلون اللغات غير الأوربية، وكان اعتمادهم الرئيس فى التعرف إلى تلك اللغات على الترجمات. إذن فمن الطبيعى أن يركز هؤلاء على دراسة الآداب الأوربية التى يعرفونها. (حديدى،١٣٥١ش: ٦٩٥)

إن الانفتاح على الآخر وثقافته من أولى مهمات الباحث المقارنى، ولم يكن هذا الانفتاح غائباً قط عن أذهان المقارنين الكبار، غير أن «تدقيقهم فى منهجية البحث وتركيزهم فى البدء على الامتدادات الخاصة لآدابهم القومية (الأدب الفرنسى بوجه خاص) هيأ النفوس لقبول الانطباع العام بأنهم متزمتون ومتعصبون وضيقوالأفق.» (الخطيب، ١٩٩٩م: ٧٨)

و. لعلنا لانجافى الصواب إذا قلنا إن الأدب عملية لغوية قبل أن يكون شيئاً قومياً أو سياسياً، كما يمكن القول إن «الحدود اللغوية كانت على امتداد التاريخ أكثر ثباتاً وأقل تقلباً، مداً وجزراً من الحدود السياسية.» (مكى ، ١٩٨٧م: ٢٣٧)

وتقتضينا الأمانة أن نشير أن هناك عدداً من الباحثين فى أمريكا وفى غيرها من البلاد يعارضون هذه الفكرة، ويعتقدون أن ثمة خلافات واسعة بين آداب تكتب بلغة واحدة، وأن هذه الفوارق والخلافات الكبيرة تتيح مادة خصبة للباحث المقارن. ويرد عليهم أنصار الاتجاه التقليدى بقولهم: «الأدب المقارن لايتجاهل إحساس الكاتب القومى أو القضايا الوطنية التى يعرض لها، أو الألوان المحلية التى يطلى بها أفكاره، ولاشخصية هذه الآداب وذاتيتها؛ كل ما هنا لک أنه يرى أن مثل هذه الخصائص ليست بذات أهمية فى الدراسة المقارنة وأن الحدود القومية تساوى قليلاً فى الاعتبار، إذا لم تدعمها الحدود اللغوية.» (المصدر نفسه: ٢٤٠)

المفهوم الثالث. المقارنة بين الآداب ومقارنة الأدب بالفنون والعلوم البحتة والإنسانيات

إنالمفهوم المقارنى الفرنسى سيطر على الساحة الغربية حتى منتصف القرن العشرين على الأقل، ثم تعرض شيئاً فشيئاً لبعض الاعتراضات، ولاسيما من قبل الأمريكيين.

والحقيقة أن المحاولات الأولى لتغيير المفهوم التاريخى للأدب المقارن وتعديل مضمونه بدأت منذ عام ١٩٤٩م، حين أصدر كل من رينيه ولک[1] وأوستن وارن[2] كتاباً بعنوان **نظرية الأدب**[3] وانتقدا فيه المفهوم المقارنى الفرنسى فى إيجاز.

يعتبر ولک من أبرز خصوم الأدب التقليدى المقارن، وقد وجَّه نقداً شديداً لدراسات التأثير والتأثر وأسسها ومرتكزاتها، وذلک فى محاضرة تاريخية ألقاها عام ١٩٥٨م فى المؤتمر الثانى للرابطة الدولية للأدب المقارن فى أمريكا. (عبود، ١٩٩٩م: ٢٨٨) ومما ورد فى تلک المحاضرة من مآخذ:

١. «عدم وجود تحديد واضح لموضوع الأدب المقارن ومناهجه

٢. عدم التركيز على العمل الأدبى فى الدراسة

٣. الاندفاع بعوامل قومية.» (حسان، ١٩٨٣م: ١٥)

كان هذا البحث إيذاناً بمولد مفهوم أمريكى للأدب المقارن بدأ يطرح نفسه فى الساحة المقارنة. والحق أنه فى سنوات معدودة حقق المقارنون الأمريكيون حضوراً مرموقاً فى مختلف أوجه البحث المقارنى. ونذكر من أهم أسباب هذا الازدهار: «تنوع معرفة اللغات بسبب الطبيعة الأممية (الكوزموبوليتانية) للمجتمع الأمريكى، وهجرة العقول المستمرة، وسهولة الوصول إلى المعلومات والمراجع نتيجة للتسهيلات المكتبية الفائقة.» (الخطيب، ١٩٩٩م: ١١٤)

وبعيداً عن التفصيلات المتعلقة بالنشاطات التأليفية والتنظيمية فى أمريكا نشير إلى أهم الباحثين الأمريكيين، الذين أسهموا فى تحديد المفهوم الأمريكى للأدب المقارن. ومن هؤلاء على سبيل المثال– لاالحصر– رينيه ولک أبرز أعلام النقد الأدبى فى أمريكا. يقول ولک: «يدرس الأدب المقارن الأدب مستقلاً عن حواجز السياسة والجنس واللغة ولايمكن أن ينحصر فى منهج واحد؛ فالوصف والتشخيص والتفسير والقص والتوضيح تستخدم كلها فى معالجته، بنفس القدر الذى نستخدم فيه المقارنة. ولايمكن للمقارنة

1. Wellek
2. Warren
3. Theory of Literature

أيضاً أن تقتصر على العلاقات التاريخية الفعلية، لأن ثمة ظواهر متشابهة فى اللغات أو الأجناس الأدبية ذات قيمة كبيرة رغم أنها لاترتبط تاريخياً... كذلک لايمكن أن نحصر الأدب المقارن فى تاريخ الأدب، ونستبعد النقد والأدب المعاصر...» (مكى، ١٩٨٧م: ١٩٦)

ويتضح من التعريف الذى قدمه ولک أن هذا الناقد التشيكى الأصل يمثل اتجاهاً أمريكياً متحرراً، لايرى للأدب المقارن أية حدود، ويدخل فيها المقارنة المفتوحة ودراسة علاقات الأدب بالفنون والمعارف الأخرى، ويرفض أن يخضع الأدب المقارن لمنهج واحد.

ويعرفه أولدريج[1] فى كتابه عن الأدب المقارن بقوله: «من المتفق عليه الآن بصفة عامة أن الأدب المقارن لايقارن الآداب القومية بمعنى أن يضع أحدهما إزاء الآخر، ولكنه بدلاً من ذلک يقدم منهجاً لتوسيع نظرة الإنسان فى تناوله للأعمال الأدبية المعينة. إنه طريقة للنظر إلى ما وراء الأطر الضيقة للحدود القومية من أجل إدراک الاتجاهات والحركات فى الثقافات القومية العديدة، ومن أجل إدراک العلاقات بين الأدب والمجالات الأخرى للنشاط الإنسانى. باختصار يمكن تعريف الأدب المقارن بأنه «دراسة أية ظاهرة أدبية من وجهة نظر أكثر من أدب واحد، أو متصلة بعلم آخر أو أكثر.» (حسان، ١٩٨٣م: ١٦)

ويحدده هنرى رماک[2] أحد أكبر المقارنين فى أمريكا بقوله: «الأدب المقارن هو دراسة الأدب خلف حدود بلد معين، ودراسة العلاقات بين الأدب من جهة ومناطق أخرى من المعرفة والاعتقاد من جهة أخرى، وذلک من مثل الفنون (كالرسم والنحت والعمارة والموسيقى) والفلسفة، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية (كالسياسة والاقتصاد والاجتماع)، والعلوم، والديانة وغير ذلک. وباختصار، هو مقارنة أدب معين مع أدب آخر أو آداب أخرى، ومقارنة الأدب بمناطق أخرى من التعبير الإنسانى.» (الخطيب، ١٩٩٩م: ٥٠)

1. O. Aldridge
2. H. Remak

وبمقارنة هذا التعريف الأخير بالتعريف الذى يقدمه الاتجاه الفرنسى للأدب المقارن يتبين لنا بوضوح أن مواطن الشبه والاتفاق بين التعريفين تكاد تنحصر فى اعتبار الأدب المقارن دراسةً للأدب خارج الحدود، ولكن الخلاف بينهما كبير من ناحية التركيز وبخاصة فى مجال المسائل التطبيقية. فالظاهرة الأدبية لم تعد هى وحدها محط أنظار المقارنة عند المقارنين الأمريكيين، ولكن أصبح طموح المقارنة يشمل مختلف حقول المعرفة والتعبير الإنسانى، إلى درجة أن كلمة أدب تضيق اليوم عن استيعاب المقارنات المعاصرة.

ومن الفوارق الأساسية بين التعريفين أن رماک وزملاءه الأمريكان لايشترطون ثبوت التأثير والتأثر شرطاً للمقارنة، وأنهم يقربون الأدب المقارن من النقد الأدبى.

وفى ختام الحديث عن المفهوم الأمريكى للأدب المقارن ينبغى الإشارة إلى أن تعريف رماک السابق الذكر أوضح، وأسهل إلى الفهم، وأشد التزاماً بالحدود، وأكثر قبولاً اليوم فى العالم من التعاريف التى قدمها زملاؤه فى أمريكا وفى أوربا، ومن هنا يمكن أن ننظر إليه على أنه يمثل الكلمة الأخيرة فى المفهوم الأمريكى للأدب المقارن فى القرن العشرين، وفى قسم كبير من القرن الراهن.

الاتجاهات الفرنسية الجديدة

فى النصف الثانى من القرن العشرين تعرضت المدرسة الفرنسية التقليدية لنقد شديد من قبل بعض الفرنسيين أيضاً، وكان على رأس المنتقدين رينيه اتيامبل[1]، الذى وجه نقداً عنيفاً لمواطنه جويار واتهمه بالتعصب القومى والاقليمى، وسخر منه لأنه أعاد طباعة كتابه **الأدب المقارن** عام ١٩٥٨م دون أن يشعر بالتطورات الكبرى التى شهدتها الساحة المقارنية فى الخمسينات. (المصدر نفسه: ٤٢- ٤٣)

ولم يقف اتيامبل عند هذا الحد، بل دعا إلى الاهتمام بآداب الشرق الأقصى وبحقول

1. R. Etiemble

جديدة كالأسلوبيات، وبالعلوم البلاغية كالبيان والبديع، وكذلک بالترجمة. (المصدر نفسه: ۴۳)

والمتأمل فی آراء اتيامبل الجريئة يدرک بسهولة أنه يدعو إلى أدب مقارن يجمع بين المنهجين التاريخی والنقدی، الأمر الذی يحملنا على القول بأنه قد استفاد من ردود الفعل التی برزت فی وجه الاتجاه الفرنسی التقليدی، وحاول أن يتدارک الأخطاء ومواطن الضعف التی أثارها خصومها منذ منتصف القرن العشرين.

وممن هاجم رواد المدرسة التقليدية من الفرنسيين جان فرابييه[1]، الذی لفت انتباه زملائه إلى أهمية البحث فی الآداب الوسيطة إلى جانب آداب عصر النهضة والعصر الحديث. (مکی، ۱۹۸۷م: ۷۹ و ۸۰)

ومنهم أيضاً روبير إسكاربی[2]، الذی شدد على أهمية علم الاجتماع الأدبی، وألف فيه، وبذلک أعاد إلى هذا الحقل المعرفی مايستحقه من اهتمام. (المصدر نفسه: ۸۰)

ومن أهم الكتب النظرية الجديدة فی فرنسا كتاب **الأدب المقارن** من تأليف كلود بيشوا[3] وأندريه ميشل روسو[4]. ومن مزايا هذا الكتاب، الذی صدر فی باريس عام ۱۹۶۷م[5] «وصف المجالات المختلفة التی تشكل الأدب المقارن مع الاحترام قدر المستطاع لنظام متوارث من كتاب فان تييجم.» (باجو، ۱۹۹۷م: ۱۸)

ومن اللافت للنظر فی هذا الكتاب هو أننا نلاحظ فيه لأول مرة فی الأدبيات المقارنية الفرنسية تعريفاً للأدب المقارن يشدد على تداخل الاختصاصات ويهدف إلى الجمع بين الاتجاهات المختلفة فی الدراسات المقارنة، ونقصد به التعريف التالی:

«الأدب المقارن هو الفن المنهجی، الذی يبحث عن علاقات التماثل، والقرابة، والتأثير، وتقريب الأدب من الأشكال المعرفية والتعبيرية الأخرى، أو تقريب الأعمال

1. J. Frappier
2. R. Escarpit
3. C. Pichois
4. A. M. Rousseau

۵. أعيدت طباعة هذا الكتاب عام ۱۹۸۳م بعد أن اشترک برونيل (Brunel) مع بيشوا وروسو فی تأليفه.

والنصوص الأدبية من بعضها، بعيدة كانت فى الزمن أو فى الفضاء، شرط أن تنتسب إلى لغات متعددة أو ثقافات مختلفة، وإن كانت جزءاً من تراث واحد، وذلک من أجل وصفها، وفهمها وتذوقها بشكل أفضل.» (برونيل وبيشوا وروسو، ١٩٩٦م: ١٧٢)

وهناک أيضاً تعريف آخر أكثر إيجازاً قدمه المؤلفان بالاشتراک مع برونيل، وهو كما يلى:

«الأدب المقارن وصف تحليلى، ومقارنة منهجية وتفاضلية، وتفسير مركب لظواهر أدبية بين اللغات أو الثقافات من خلال التاريخ والنقد والفلسفة، من أجل الوصول إلى فهم جيد للأدب بوصفه وظيفة نوعية للروح الإنسانية.» (المصدر نفسه: ١٧٣)

وهذا التعريف الأخير يفتقر إلى الوضوح التام، وهو يحاول أن يجمع الاتجاهات والمدارس المختلفة فى الأدب المقارن، كما أنه يضيف الاتجاه الفلسفى إلى الاتجاهين التاريخى والنقدى، ويشدد على المقارنة بين أدبين أو ثقافتين على الأقل.

ومن أهم الكتب النظرية فى فرنسا كتاب **الأدب المقارن** لايف شفريل[1]. ألفه مؤلفه عام ١٩٨٩م وكتب مقدمته المقارن الشهير جويار. والكتاب صغير وموجز وهو «يتضمن خلاصات مركزة تساعد الطلاب والدارسين... وعلى الرغم من دقته ووضوحه، فإنه قد لايدل على حصول تقدم ملموس فى المقارنة الفرنسية منذ أيام المقارنين الأوائل.» (الخطيب، ٢٠٠١م: ٥٩)

وفى هذا الكتاب الذى ترجم إلى الفارسية[2]، يتحدث المؤلف عن آخر تطورات الأدب المقارن فى أوربا ويدعو إلى دراسة الصلات القائمة بين الأدب وبعض الفنون كالسينما والرسم والموسيقى والرقص والعمارة.

ومن المقارنين الجدد فى فرنسا دانييل هنرى باجو[3]، مؤلف **الأدب العام والمقارن** سنة ١٩٩٤م. وفى هذا الكتاب يركز المؤلف على الاتجاهات الجديدة التى يواجهها اليوم

1. Y. Chevrel

٢. ترجمه طهمورث ساجدى ونشره فى طهران عام ١٣٨٦ ش(دار أميركبير للنشر).

3. D. H. pageaux

الأدب المقارن كالتناصية[1]، والسيميائية[2]، والأدب النسائى[3] و... كما يدعو إلى دراسة علاقات الأدب بالفنون، كالرسم، والموسيقى والسينما.

ويحق لنا- بعد هذا العرض السريع - أن نقول: إن المقارنين الفرنسيين يهتمون بالمقارنة بين الأدب والفنون المختلفة، و«لكنهم لايعتقدون أنها تدخل فى نطاق الأدب المقارن.» (الخطيب، ٢٠٠١م: ٥٢) وبعبارة أخرى: إنهم أميل إلى تصنيف مثل هذه المقارنات فى إطار النقد الأدبى وليس فى نطاق الأدب المقارن.

يبقى بعد هذا أن نشير إلى أن من الفرنسيين اليوم «من يؤمن بالتعريف الذى قدمته المدرسة التاريخية، ومنهم من يؤمن برأى المدرسة النقدية، ومنهم من ارتضى رأى المدرستين وحاول التوفيق بينهما.» (عامر، ١٩٨٩م: ٣٤) والشيء نفسه يمكن أن نقوله عن الاتجاهات السائدة فى أمريكا وفى غيرها من أصقاع العالم.

اهتمامات معاصرة للأدب المقارن

مجالات البحث فى الأدب المقارن اليوم كثيرة ومتنوعة، وهى اليوم أوسع، وأشد تنوعاً بسبب دخول الأمريكيين فى الساحة المقارنة، وتوسعهم الشديد فى مفهوم الأدب المقارن، وانفتاحهم على مختلف النزعات النقدية والفنية والمعرفية. وفيما يلى إشارة عابرة بأبرز هذه المحاور الجديدة دون الدخول فى التفصيلات:

١. دراسات التماثل والتخالف المتجاوزة للحدود اللغوية أو الجغرافية أو المعرفية

٢. مقارنة الأدب بالفنون المختلفة وبالعلوم والمعارف الإنسانية

٣. الدراسات الترجمية: ويعتبرها دعاتها اليوم حقلاً معرفياً مستقلاً عن الأدب المقارن، ويعطونها أهمية تفوق أهمية الأدب المقارن.

٤. دراسات التناص: والمراد بالدراسات التناصية هو أن «كل نص هو امتصاص وتحويل لنصوص أخرى.» (باجو، ١٩٩٧م: ٢٦) وهذه النصوص إما أن تكون سابقة أو معاصرة، حاضرة فى الوعى أو اللاوعى الفردى والجماعى.

1. Intertextuality
2. Semioties
3. Feminine Literature

۵. دراسات التلقی: ووفقاً لهذا الاتجاه النقدی «لایدین العمل الأدبی، والعمل الفنی عامة بحیاتهما واستمراریتهما إلا لاسهامات القراء والجمهور المتواصلة.» (المصدر نفسه: ۷۴) وهذه الأبحاث والدراسات التناصیة تکاد تحل محل دراسات التأثیر والتأثر التقلیدیة تقریباً.

۶. ظهور مواضیع مستحدثة کتاریخ التعلیم (لتأثیره فی تشکیل الفکر الأدبی)، ونظریة القراءة (التی تعتبر القراءة خلقاً جدیداً للنص)، والسیمیائیة (وهی علم تفسیر معانی الدلالات والرموز والإشارات)، والدراسات ما بعد الاستعماریة، التی «تبحث فی العلاقات الثقافیة بین الغرب بوصفه مستعمرا ومایقع خارج الغرب من دول وقعت تحت طائلة الاستعمار، مع ما تتضمنه تلک الدراسات من تحلیل للنصوص الأدبیة وغیرها للکشف عن استراتیجیاتها الخطابیة.» (الرویلی والبازعی، ۲۰۰۲م: ۳۲)، والمثاقفة باعتبارها أبرز آلیات حوار الثقافات؛ وقضیة عولمة الثقافة والأدب، وکذلک التطورات الأدبیة الناتجة عن تفشی الثقافة التکنولوجیة وثورة وسائط الاتصال، والکتابة الحاسوبیة والإنترنت و...إلخ.

وبمناسبة الکلام علی مجالات البحث فی الأدب المقارن الیوم لابد من الإشارة إلی تلک الدراسات التی یتم إنجازها داخل نطاق الأمة الواحدة أو المنطقة الواحدة، ومنها: مقارنة أدب الجنسین أو ما یسمّی دراسات الجنسین[1] وقضیة المقارنة بین النزعات المارکسیة واللامارکسیة فی نطاق الأدب الواحد... ودراسات مقارنیة واسعة تتناول الأدب الأبیض إزاء الأدب الأمریکی الإفریقی[2] و...» (الخطیب، ۲۰۰۱م: ۱۱۵)

النتیجة

من المسلم به أن نظریة الأدب المقارن نظریة حدیثة من حیث کونه نوعاً من البحث الأدبی یعنی بدراسة العلاقات الأدبیة الدولیة وهجرة الأفکار والصلات المختلفة بین الأدب والفنون الأخری والإنسانیات.

1. Gender Studies
2. Afro- American

وإيضاحاً للفكرة يمكن القول إن هناك نوعين من المقارنة:

١. المقارنة باعتبارها ظاهرة قديمة مفتقرة إلى المنهجية العلمية السليمة: وهى لاتزال مستمرة، ويبدو أنها ستستمر حتى المستقبل القريب على الأقل بسبب الجهل الموجود فى بعض البيئات لنظرية الأدب المقارن الحديثة.

٢. المقارنة كعلم له أصول وقواعد: وهذا النوع حديث النشأة ، كما أسلفنا، وهو فى تطور مستمر، نظرا لما يطرأ على الساحة الأدبية والنقدية من تطورات ومستجدات.

والملاحظ أن هذا النسق المعرفى الجديد لايزال يعانى من الاضطراب فى مفهومه، وعدم التحديد الحاسم فى مناهجه واتجاهاته، وحدوده؛ غير أن هناك إجماعاً على أن فلسفة الأدب المقارن قائمة اليوم فى أنه دراسة للأدب خارج الحدود، سواء أكانت هذه الحدود لغوية أم جغرافية أم معرفية.

إن الدراسات المقارنة تعيش اليوم فترة ازدهارها فى معظم البلدان، وبالطبع يكمن سر هذا الإقبال أو الازدهار الشديد فى تنامى التلاقح بين الثقافات والآداب المختلفة، وفى انتشار التطلع العام إلى العالمية وفى انقضاء عهود الانغلاقية الثقافية وبدء عصر الثورة الاتصالية والمعلوماتية.

إن المقارنة اليوم تعتبر أساسا مكينا من أسس التفكير الحديث فى جميع الحقول المعرفية، ولايمكن أن ينمو فى العصر الراهن بحث أو فكر أو علم أو أدب دون منظور مقارنى.

المصادر والمراجع

باجو، دانييل هنرى. ١٩٩٧م. *الأدب العام والمقارن*. ترجمة غسان السيد. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

برونيل، بيير كلود بيشوا وأندريه ميشل روسو. ١٩٩٦م. *ما الأدب المقارن؟*. ترجمة غسان السيد. دمشق: دار علاء الدين.

جويار، ماريوس فرانسوا. ١٩٥٦م. *الأدب المقارن*. ترجمة محمد غلاب. القاهرة: لجنة البيان العربى.

حديدى، جواد. ١٣٥١ش. *«ادبيات تطبيقى، پيدايش وگسترش آن»*. **مجله دانشكده ادبيات وعلوم**

انسانی مشهد. س ۸. العدد ۴. ۱۳۵۱ش.
حسان، عبدالحکیم. ۱۹۸۳م. *«الأدب المقارن بین المفهومین الفرنسی والأمریکی»*. **فصول**. القاهرة: ج ا، ۳.
الخطیب، حسام. ۱۹۹۹م. ***آفاق الأدب المقارن عربیاً وعالمیاً***. دمشق: دار الفکر.
ـــــــــــــ . ۲۰۰۱م. ***الأدب المقارن من العالمیة إلی العولمة***. الدوحة: المجلس الوطنی للثقافة والفنون والتراث.
الرویلی، میجان وسعد البازعی. ۲۰۰۲م. ***دلیل الناقد الأدبی***. بیروت: المرکز الثقافی العربی.
شورل، ایو. **۱۳۸۶ش**. ***ادبیات تطبیقی***. ترجمه طهمورث ساجدی. تهران: انتشارات امیرکبیر.
شوقی رضوان، أحمد. ۱۹۹۰م. ***مدخل إلی الدرس الأدبی المقارن***. بیروت: دار العلوم العربیة.
صابری، علی. «الأدب المقارن وبداياته الأولی فی الأدب العربی». فصلیة التراث الأدبی. صیف ۱۳۸۸ش. العدد۳. صص ۱۹۹-۱۸۳.
عامر، عطیة. ۱۹۸۹م. ***دراسات فی الأدب المقارن***. القاهرة: مکتبة الانجلو المصریة.
عبود، عبده. ۱۹۹۹م. *«الأدب المقارن والاتجاهات النقدیة الحدیثة»*. **عالم الفکر**: الکویت، ع ا، م ۲۸.
علوش، سعید. **۱۹۸۷م**. ***مدارس الأدب المقارن***. المرکز الثقافی العربی.
مکی، الطاهر أحمد. ۱۹۸۷م. ***الأدب المقارن، أصوله، تطوره ومناهجه***. القاهرة: دار المعارف.
المناصرة، عزالدین. ۱۹۸۴م. *«بیان الأدب المقارن، إشکالیات الحدود»*. **أعمال الملتقی الأول للمقارنین العرب**. الجزائر: دیوان المطبوعات الجامعیة، ۱۹۸۴م.
هلال، محمد غنیمی. ۱۹۶۱م. ***الأدب المقارن***. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.
ولک، رنه وآوستن وارن. ۱۳۷۳ش. ***نظریة ادبیات***. ترجمة ضیاء موحد وپرویز مهاجر. تهران: شرکت انتشارات علمی وفرهنگی.

پرتال جامع علوم انسانی